قصة

جنيّات النيل

منصورة عز الدين

يبدأ كل شيء في توقيت صلاة الجمعة!

تسمع المرأة الساكنة في البيت الحجري في حضن النيل، تماماً عند المرسى، أصواتاً مُنغّمة غامضة. في البدء ظنتها أغنيات تعرفها، ثم أدركت أنها أشبه بكلمات مغناة بلغة لا تفهمها. تخرج من بيتها فتلمح ما يشبه الدخان الأبيض يتكاثف بين أشجار الكافور المعمِّرة أمام البيت. ليس دخاناً، لو شئنا الدقة، إنما شيء أبيض أشبه بسحب طولية تتراقص وتتعانق فيما بينها. حين تمعن النظر ترى الأشكال الهلامية البيضاء تستحيل أطيافاً، كأنما لأجساد أنثوية تدور متعانقة في غنج. تشف الأصوات وتصبح أكثر نعومة وإغواءً. وتتمايل الأطياف الأنثوية على إيقاعات غير محسوسة محولةً الوجود خارجها إلى صمت تام. صمت ينصت إلى هذه الموسيقى المجهولة المصدر.

المرأة في البيت الحجري اسمها زينات، غير أنها حين يتكرر هذا الطقس أمامها كل أسبوع تكاد تنسى اسمها وأمها وأباها، وحتى زوجها الذي تعرف أنه سيتهمها بالجنون لو حكت له عمّا تراه.

منصورة عز الدين، قاصة وروائية من مصر.

في البدء شعرت بالخوف. خوف بدائي عميق يسكنها منذ الأزل. هي دائما خائفة، ثم تبدأ تالياً في اختراع الأسباب. في ما بعد انقلب خوفها فضولاً، ومن الفضول وُلِدت الرغبة. رغبة مذلة يائسة في الالتحام بهذه الأجساد النورانية الشفافة.

قالت هنّ جنيّات النهر، وقد سئمن حياتهن في الأعماق. تتذكر أن أمها، المتوفاة الآن، كانت عارضت أن يسكن زوج ابنتها قريباً هكذا من النيل. قالت إن لجنيّاته حرمة لا بد وأن تُحترم. لم ترَ جنيّة من قبل، ولم يخبرها أحد من معارفها أنه رأى إحداهن، لكنها تعرف أنهن جميلات في الغالب، بشعر أسود بالغ الطول، وعيون مشقوقة طولياً ذات لمعة متوهجة، وقادرات على الحلول في أجساد بشرية.

تعرف ذلك معرفتها أن الشمس هي الشمس، والقمر هو القمر، والليل هو الليل.

تمعن النظر في الأطياف الأنثوية أمامها، فيُخيل إليها أنها تتحول إلى أجساد من لحم ودم، لكن ببشرة ناعمة مصقولة تكاد تكشف، من فرط شفافيتها، عمّا تحتها. يرتفع صوت الغناء فجأة ويتسارع الرقص. قبل أن يختفي كل شيء ويطبق الصمت من جديد. لحظتها تعود لتسمع حفيف أوراق الشجر، وصوت خطيب الجمعة يعلو بلا مقدمات منهياً خطبته.

أيقنت أن هذا سرها الذي لا ينبغي أن تخبر به أحداً. بدأت تنتظرهنّ في الخلاء أمام البيت في الموعد نفسه من كل أسبوع. باتت تخشى أن ترمي أي شيء في المساحات بين أشجار الكافور، اعتادت أن تكنس الأرض هناك وترشها بالمياه يومياً، قبل أن تقرر إضافة ماء الورد إلى المياه المرشوشة.

فكرت أن تسأل المراكبي إن كان رأى إحدى جنيّات النيل من قبل، غير أنها خافت أن يستدرجها في الحديث، فتضطر إلى حكي ما لا ترغب في حكيه. لا تثق في قدرتها على كتم أي سر. ما أن يسألها أحدهم سؤالاً مباشراً حتى تجيب بكل التفاصيل، المهم منها والهامشي.

تنهي زوجتي أعمالها ببطء، وتحضّر طعام الغداء، ثم تجلس بهدوء إلى المصطبة أمام البيت متسليةً بمراقبة المنتظرين بجوار المرسى، وهي ترتق ثوباً قديماً، أو تنّقي الأرز، وتقطع الخضر لطبخة اليوم التالي.

يتهلل وجهها المغمور بالتجاعيد والغضون حين ترى المراكبي. أتابعها عبر النافذة من مكاني فوق الفراش حيث أرقد باستمرار. في العصاري لا يكون في عجلة من أمره، يقف ليتبادل معها كلمات قليلة باهتمام. يحكي لها عن ابنه الذي يرفض مساعدته في عمله، وزوجته العجوز الماهرة في الحياكة. تعطيه شربة ماء، أو كيساً مليئاً بخضر وأعشاب من تلك التي تزرعها في الفَسَحة الممتدة بين أشجار الكافور وشجرة التوت الضخمة.

يصل إلى ضفتنا مرتين يومياً. صباحاً، حيث ينتظره، قرب المرسى، الراغبون في العبور إلى الضفة الأخرى، ومساءً كي يعيد من ذهبوا في الصباح ويأخذ من كانوا جاءوا معه. في أحيان كثيرة، يأتي مرة ثالثة حين تخفت حرارة الجو في العصاري، أو حتى في منتصف النهار حين تتوسط الشمس صفحة السماء، إذا تجمع عدد ممن يرغبون في عبور النهر. يقفون منتظرين بلا ملل في ظل أشجار الكافور إلى أن يقرر المجيء لنقلهم.

في الماضي البعيد، قبل انتقال المرسى إلى جوار بيتنا، كنا نعيش في عزلة تامة. لا أحد يقترب من البقعة التي نسكنها. في بدايات زواجنا بكت زوجتي كثيراً، بإيعاز من أمها، محاولةً إقناعي بالانتقال إلى بيت آخر في البلدة نفسها، لا على أطرافها هكذا في حضن النيل. كنت أتأخر معظم الليالي غير مبالٍ بخوفها من النيل والظلام المتربص بها خارج البيت.

في أيام الجمع والعطلات كنت أيضاً لا أبقى في البيت. لم تفهم أبداً، كيف لشخص نشأ مثلي في المدينة، أن يهجرها إلى الريف، وإلى هذه البقعة المعزولة بالذات. إنعام نفسها لم تفهم ذلك.

أخبرتني زوجتي ذات مرة عن أصوات تسمعها، في غيابي، آتية من النهر ونباتات الحلفا المحيطة به. أكدت أنها للجنيّات اللائي يبدون كأنما يلعبن في الماء بأصوات لاهية مجلجلة، غير أنها عادت لتنكر ذلك. كانت مقتنعة أن قرب البيت لهذه الدرجة من النهر ينطوي على خطيئة رهيبة. لم تردعها سخريتي منها، ولا اتهامي لها بالجنون، لأن مخاوفها كانت أكبر من أن تُقمع.

في ذلك اليوم البعيد الذي عدت لأجدها فيه غائبة عن الوعي بين أشجار الكافور،

لم أصدقها، بل وضربتها رافضاً الاستماع إلى تبريراتها. في الحقيقة، لم يكن هناك أي تبريرات، حكت أشياءً غريبة عن أطياف تظهر لها بين أشجار الكافور. لم تعد بعدها أبداً إلى ما كانت عليه. بقيت أرعاها في البيت لعدة أسابيع، كنت أراها تحوم حول أشجار الكافور. وتجلس معلقةً بصرها بها. وفي آخر النهار ترقد في فراشها مهمومة بلا كلمة واحدة.

حتى حملها وميلاد ابننا بعد هذه الواقعة بأقل من سنة لم يُعدل مزاجها ويعيدها إلى سابق عهدها. تعلقت به، وجعلته مركز حياتها، إلا أنها ظلت على حزنها وانتظارها الصامت.

لم تعد تغادر البيت إلى أي مكان: لا تذهب إلى السوق، ولا تخرج أبعد من الخلاء المحيط بالبيت وأشجار الكافور، كأنها تحافظ على عهد قطعته على نفسها.

اعتمدت على المراكبي في إمدادها بما يحتاج إليه البيت، تعطيه النقود في المساء، ليبتاع لها ما تريده من فواكه ولحوم ويحضره معه من الضفة الأخرى صباحاً. أصبح بمثابة الحبل السري الذي يربطها بالحياة في الخارج، تماماً مثلما أصبحت إنعام بالنسبة لها فيما بعد.

المرأة الساكنة في البيت الحجري في حضن النيل.. تلك التي تدعى زينات، توجهت ذات جمعة، كعادتها، مبكراً إلى السوق التي تتوسط البلدة، عادة لا يستغرق هذا المشوار أكثر من ساعتين، منهما نصف ساعة للوصول إليها، ومثلها للعودة منها. لكنها في هذا اليوم وجدت أن من سبقنها حصلن على الفواكه والخضر الطازجة، وتركن ما لا يصلح لشيء.

تروّت في الاختيار والمفاضلة حتى اشترت ما يرضيها جزئياً، غير أنها حين وصلت إلى محل الجزارة وجدته مغلقاً، أخبرها صاحب المقهى المجاور أنه سيُفتح بعد صلاة الجمعة، فقررت الانتظار. وضعت سَبت مشترواتها بجوارها، وجلست على البسطة الرخامية أمامه. أخذت تلم أطراف ثوبها الأسود الطويل، وتداري ضفيرتيها السوداوين بطرحتها الشيفون الشفافة، وتناست مؤقتاً، الأطياف البيضاء المتراقصة بين أشجار الكافور. لو لم تشتر اللحم، سيثور زوجها. اعتادت على عصبيته، لكنها تكره صوته الأجش عندما يعلو موبخاً إياها.

بعد انتهاء الصلاة مباشـرة جاء الجزار. اشـترت منه لحم الضأن الذي يفضله زوجها، وغادرت مسـرعة. تعرف أنهن غادرن لا ريـب، لكنها ترغب فقط في الوصول إلى هناك، كأنما سـيعرفن بشـوقها لرؤيتهن. خطت مسـرعة فوق الطريق الترابي الضيق الواصـل بين البلدة والمكان حيث بيتها، الطريق تحده حقول ممتدة مزروعة بالذرة عن يساره، وحقول أخرى مزروعة بالخضر عن يمينه، مساحات واسعة يليها النيل، وعلى الضفة الأخرى منه بسـاتين النخيل والبرتقـال والعنب. تكاد تتعثر في طرف ثوبها، الحرارة مرتفعة، وملابسها الثقيلة تزيد من الحر. الطريق مهجور تماماً وكذلك الحقول على جانبيه، يغادرها الفلاحون بسرعة للحاق بالصلاة ولا يعودون لها إلا عصراً حين يعتدل الجو.

منذ طفولتها تخشى حقول الذرة، لطالما حذرتها أمها من السير بجوارها، سألت إن كانت بها جنيّات. فردت الأم بصوت يشبه النعيق: بل أسوأ. رجال.

شرحتْ لها أن الرجال يختبئون في حقول الذرة لاستدراج وإيذاء الفتيات والنساء المارات. وقتذاك لم تعرف نوعية هذا الإيذاء، لكنها خرجت بمعلومة أن الرجال أسوأ من الجنيّات.

فجأة بينما تواصل التعثر في جلبابها، وهي تحمل سـبَت مشـترواتها الثقيل، حل ذلك الصمت الذي تألفه، صمت تكاد معه أن تسـمع صوت أفكارها. انتظرت أن يتكاثف الدخان الأبيض، وأن تنبثق لها الأجساد الأنثوية الراقصة، غير أن أياً من هذا لـم يحدث. زاد الصمت، قبل أن ينبعث صـوت مختلف عمّا اعتادته من أطيافها، كان أقرب إلى النحيب وتأوهات الألم. نظرت إلى حقل الفاصوليا عن يمينها فوجدته ممتلئاً بنسـوة يرتدين السـواد، ورؤوسـهن يتوجها شـعر فاحم بالغ الطول. يقطعن نبتـات الفاصوليا بزهورها البيضاء الصغيرة، وهن يولولن ثم يخبطن على رؤوسـهن بأيديهن.

كان طقساً جنائزياً مخيفاً، ورغم ثقل حمولتها بدأت في الركض، ارتجف قلبها، وحاولـت الصراخ فخرج صوتها ضعيفاً مبحوحاً. شـعرت أن الطريق يطول أكثر من المعتاد. تعالى الندب والنحيب، ورأت نبتات الفاصوليا وقد قُطِّعت بكاملها، وتحولت إلى كومات صغيرة ملقاة بإهمال. كانت قد اقتربت من بيتها، ولمحت المراكبي يرسـو

بقاربه من بعيد، نادت باسمه بصوت أرادته قوياً واثقاً، ولدهشتها توقف كل شيء حين نطقت الاسم. عادت زقزقات الطيور على الأشجار القريبة، نباح كلب بعيد، وحفيف أوراق شجر يحركها هواء خفيف.

اتجهت نحو المرسى. كانت تتنفس بصوت مسموع ومتقطع. طلبت من المراكبي أن يساعدها في إنزال السبت من فوق رأسها. جلست على الأرض تلتقط أنفاسها. بعد قليل قامت ببطء متجهة نحو بيتها. دخلته بهدوء، فيما لحق بها المراكبي حاملاً السبَت. تركه في وسط الصالة الضيقة، وعاد مسرعاً نحو المرسى. رقدت في فراشها مرتعشة. لأول مرة تشعر بالراحة لأن زوجها يقضي معظم وقته خارج البيت في أماكن لا تعرفها، ولم تهتم يوماً أن تسأله عنها.

في الصباح جاءت إنعام!

أشعر بها بمجرد أن تدخل البيت. سمعت صوتها الذي لم تغيّره السنوات. تضحك بصوت مرتفع وهي تحادث زوجتي. بدت سعيدة والكلمات تنطلق منها متتابعة بلا مسافات تفصلها. اعتدلتُ قليلاً في جلستي انتظاراً لدخولها، غير أنها تأخرت. لمحتها عبر الباب الموارب تحتضن زوجتي قبل أن تربت على كتفها وتعدل لها من وضع طرحتها الشيفون السوداء فوق رأسها. اتجهتا معاً للجلوس إلى الكنبة التركي في الجهة الأخرى من الصالة فغابتا عن مجال رؤيتي. كانتا تتحادثان بصوت لم أتبين كلماته رغم عدم انخفاضه.

أفقت من نومي أبكر من المعتاد كوني أعرف أن هذا موعد قدوم إنعام. الخميس الأول من كل شهر. منذ لم أعد قادراً على الذهاب إليها، صارت هي من تأتيني في الموعد نفسه. وما أن تغادرني عائدةً إلى بلدتها البعيدة، حتى أعيش على أمل لقياها من جديد. صارت حياتي نوبات انتظار متواصلة لزياراتها. أشعر أحياناً أني أتلذذ بهذا الانتظار أكثر من لقائها المباشر. في الأيام القليلة التي تسبق زيارتها، أعد الساعات سعيداً بقرب موعدها. وحين أراها، أنسى كل شيء آخر، إلا أن فرحتي يداخلها بعض الحزن لمعرفتي أنها ستغادر كعادتها قبل حلول المساء.

لا تزال تتبادل الحديث مع زوجتي، كأنها أتت لزيارتها هي لا أنا. أفكر في مناداتها، غير أني أتراجع وأواصل انتظاري. أشعر أحياناً أن زوجتي تنتظر إنعام بلهفتي نفسها، غير أني لا أستطيع الجزم بأي شيء يخصها.. رأيتها منذ يومين، عبر النافذة المفتوحة دوما، تربت بعطف على سيارة نقل البضائع القديمة المركونة بالخارج، وتتحسسها كأنما تتحسس شخصاً تحبه، قبل أن تغطيها حفاظا عليها من الأمطار التي تنهمر منذ يومين، على الرغم من أنها طلبت مني بيعها مراراً في الماضي، قائلة إنها لا تطيق رؤيتها أمام البيت.

في الأيام التي تسبق موعد إنعام الشهري، تحرص زوجتي على الانتهاء من كل أعمال البيت التي تستغرق وقتاً طويلاً. ترتب المنزل، وتخبز، وتغسل الملابس وتنشرها على الحبل الممدود بين شجرة التوت وشجرة الخروع. ثم تجلس فوق حجر الصوان بهدوء تحملق في الملابس كمن يتابعها وهي تجف وتتماوج استجابةً لنسمات الهواء.

تكون ملابسها مبتلة بالكامل، لكنها لا تأبه بذلك، تظل في جلستها تحت الشمس حتى تجف الثياب التي ترتديها هي أيضاً. ولا تلتفت أبداً نحو النافذة التي أتابعها منها بينما أضطجع في رقدتي الدائمة فوق فراشي. حينما تمل تخطو بحركة شيخوختها البطيئة نحو النيل وتملأ الدلو البلاستيكي الأخضر بالماء. ينحني جذعها نحو اليمين استجابة لثقل الدلو الذي تحمله في يدها اليمنى. تتجه لسقي شتلات الطماطم والباذنجان المزروعة في البقعة الممتدة بين شجرة التوت وأشجار الكافور المجاورة لمرسى القارب.

منذ ضربتها، قبل سنوات طويلة، وهي تكاد لا تتبادل معي الكلام. حتى بعد مرضي لم يحن قلبها. أعوام عديدة مرت وأنا أرقد هكذا. أراقبها، وهي تتحرك ببطء، تنظر بلا تعبيرات، وتتمتم بكلمات لا أتبينها. أتساءل بيني وبين نفسي: إذا كانت ترفض النسيان بعد كل هذه السنوات، فلماذا لم تتركني كي تريحني من هذا الألم؟

أرفع عينيّ للسقف فألمح طيف ابننا مبتسماً بوداعة ترعبني، أديرهما إلى النافذة فأرى السماء بعيدة جداً. صارت النافذة كل علاقتي بالعالم الخارجي، أصر على

أن تفتحهـا زوجتـي حتى في أوقات البـرد والمطر، انتظر منهـا أن تعترض، غير أنها تخيّـب أملي وتظل علـى صمتها، تطيعني كأنما تجلدني بهـذه الطاعة. أحيانا أنظر إليها فجأة فأضبطها تختلس النظر إليّ. حين تزورني إنعام أظل أستدرجها لمعرفة فيمَ تحدثهـا زوجتي؟ وهل تضحك معها وتتصرف مثل بقية الناس أم تظل على تجهمها وصمتها؟

تدخل إنعام أخيراً ضاحكةً، تنحني لتقبل جبيني ثم تجلس إلى الكرسـي على يسار سـريري، تحكي الحكايات نفسـها كل مرة، وعلى رغم هذا أراهـا طريفة وجديدة، كأنها تعيد خلقها من جديد. إلا أنها بدت اليوم مختلفة بالرغم من مرحها البادي، كانت كأنما تموه به على حزن ما. رجوتها أن تأخذني إلى سـيارة النقل المركونة أمام البيت، فابتسـمت ولم تعلق. لأول مـرة أراها بهذا الشـرود. نظرتها وهي تغادرني أبصرتهـا فـي عيون كثيـرة من قبل.. تلك العيـون التي تعرف أنها لـن تراك ثانية، فتهرب من عينيك ويحاول صاحبها أن يتكلم بحياد كأنه ينفض يديه منك.

المرأة السـاكنة في البيت الحجري، تلك التي تدعى زينات، عرفت أن ما مرت به ما هو إلاّ عقاب لأنها أخلفت موعدها الأسـبوعي مع جنيّاتها الراقصات، تيقنت أنه مجرد تحذير بسـيط. قرصة أذن، يليها العقاب الأكبر إن عاودت فعلتها، أو أقدمت على خطأ سـواها. في الأسـبوع التالي، رفضت الذهاب إلى السوق. أخبرت زوجها أنها مريضة، وعليه أن يشتري ما يريده وهي ستطبخه له. ارتفع صوته منتقداً كسلها، وشكواها الدائمة من مرض غير موجود. كرهت ضجيجه الغاضب كعادتها، إلا أنها لم ترضخ.

قبل الموعد، جلست في الخلاء المجاور لأشجار الكافور منتظرة. حين بدأ الطقس اقتربـت، ليس كثيـراً جداً، لكنهـا تقدمت نحوهـن ووقفت تراقبهـن على مبعدة خطـوات قليلـة. ازدادت رغبتها في الاندماج بهنّ ومعهنّ. شـعرت بنشـوة، كأنما تخلصـت من هموم كثيرة، لا تعرفها على وجـه التحديد، إنما فقط تحس بوجودها. هموم متراكمة منذ الأزل، قبل حتى أن تولد.. قبل كل شيء وأي شيء.

شـجعها هذا على الاقتراب أكثر. ما أن أصبحت بين أشـجار الكافور، حتى تغير

العالم كما تعرفه. شعرت كأن الأرض تميد بها. أحست بإيقاعات الأصوات المنغمة أكثر من أي وقت مضى. تحولت الأشجار المعمرة إلى أثير، تمرق خلاله الأطياف في رقصها وهي تكوِّن دائرة تحيط بها هي وتحتضنها برفق. ضاقت الدائرة رويداً رويداً واقتربت الأطياف منها.

جلست على الأرض مبهورة غير قادرة على التقاط أنفاسها. تحولت الأطياف إلى ما يشبه لهباً أرجوانياً يدفئها. لهب أرجواني تنتهي قمته بلون أخضر فاتح يقترب منها أكثر ويلتصق بها. اختفت الأشجار نهائياً، وعاد اللهب إلى حالته كأطياف أنثوية اندمجت معاً في طيف واحد بشعر أسود يكاد يلامس الأرض، وعينين مشقوقتين طولياً وبشرة حليبية شفافة، وصوت بالغ العذوبة.

تمددت زينات على ظهرها مرتجفة. أغمضت عينيها غير قادرة على تحمل الوهج المنبعث من العينين الطوليتين. ارتعشت كأنما أصابتها الحمى حين شعرت بيد تمسّد جسدها على وقع غناء غامض بالصوت العذب نفسه. مغمضة العينين ومرتجفة شعرت بالعالم يهتز من حولها. حاولت الصراخ فانحبس صوتها، جربت البكاء فلم تقدر. استسلمت للاهتزاز والرعشة واليد الممسدة جسدها متناسيةً كل شيء إلاّ اللحظة التي تعيشها الآن.

لم تزرني إنعام منذ شهرين. لا أعرف كيف طاوعها قلبها على التأخر عليّ كل هذه المدة. أفزع من نومي أحياناً حين أتخيل أن أمراً سيئاً قد حدث لها. أثق في أنها ما كانت لتتأخر عليّ طالما تستطيع السير. لا تهاجمني الوساوس المزعجة سوى ليلاً. أبسط فكرة تتضخم في رأسي بحيث تمنع عني النوم. أكثر مخاوفي إزعاجاً أن يصيب إنعام مكروه، وهي وحدها، هناك، في بيتها البعيد.

في الماضي اعتادت أن تقول لي:

هتيجي مرة تلاقيني ميتة لوحدي من غير ما حد يدرى بي.

كل زيارة من زياراتها لي بعد أن مرضتُ كانت تردد:

آخر مرة أزورك فيها.. الروماتيزم هدني!

وأهون عليكِ؟

أسألها مستعطفاً، فتجيب بجدية «البركة في مراتك، هتاخد بالها منك».

أكاد أرى بيتها الصغير القابع وحده على الطريق السريع بجوار محطة البنزين، محاطاً بسور من أشجار الليمون والجوافة. كانت تعرف بوصولي من صوت سيارتي العنيف حين أركنها أمام البيت. أدخل صاخباً متجاهلاً نباح الكلب في الخارج. أحدثها بحماسة عن البضائع التي أنقلها، والبلاد التي أتوقف بها. وأصدقائي على الطريق. يملأ دخان سجائري الأزرق هواء البيت، وتتدحرج زجاجات البيرة الفارغة على الأرضية. تجمعها، وتوبخني، فأضحك دون أن أكترث.

أفهم إنعام بمجرد النظر في وجهها. أعرف بسهولة إن كانت غاضبة أم سعيدة، بل وأصل حتى للسبب دون أن تبوح به. على العكس من زوجتي التي لا أفهمها على الإطلاق. عشت معها أكثر من أربعين سنة دون أن أصل لما بداخلها. تقابل صراخي وعصبيتي بالصمت. لا تشكو مطلقاً، ولا تعرف لغة العتاب. سنوات طويلة مرت، ولا تزال على عنادها.

منذ بدأت تكلم إنعام، لم تتحدث معها مرة واحدة عن نفسها، فقط تسألها عن أحوالها، وتنصت باهتمام دون أن تعلق. وتتفادى دائماً الحديث عن ابننا. أخبرتني إنعام إنها حاولت أن تشرح لزوجتي أكثر من مرة أني لم أكن مخموراً يوم الحادث، وبالتالي لست مسؤولاً عن موت الولد، إلا أنها غيّرت الموضوع، ومنعت إنعام من فتحه مجدداً.

طلبت منها زوجتي أن تقنعني ببيع السيارة القديمة. قالت لها إنها تحولت لهيكل صدئ ولا تفهم سبب إصراري على الاحتفاظ بها بعد كل ما حدث. أذكر أنها توسلت إليّ بعد الحادث أن أبيع السيارة. كانت لا تطيق رؤيتها. ذكرت شيئاً عن الانتفاع بثمنها، وحين أجبتها بأنها تحولت إلى خردة ولن تعود علينا بأي نقود ذات قيمة. التجأت لصمتها من جديد. بدت كأنما تؤمن أن اختفاء السيارة سيعيد ابننا من العدم. إنعام نفسها، اعترفت لي مؤخراً بأنها كانت تغار من تعلقي بالسيارة، وكانت تضيق بالفوضى التي أخلفها، وزجاجات الخمر الفارغة التي كنت أرميها في أركان بيتها.

الآن تتفادى زوجتي ذكر أي شيء عن ابننا، وتحنو على هيكل السيارة وتهتم به. وتتبادل حوارات ضاحكة مع إنعام، إلا أنها لم تسامحني قط، ولا أزال أراها من

وقت لآخر تنظر ساهمة إلى حيث أشجار الكافور المعمرة، حينها تنفصل تماماً عن أي شيء حولها، وتظل على هذا الوضع لبعض الوقت، قبل أن تجر خطواتها بتثاقل نحو الداخل ووجهها المتغضن يحمل آثار الحسرة وخيبة الأمل.

أنظر إليها أحياناً، وأكون على وشك سؤالها أن تحكي لي كل شيء عمّا رأته بين أشجار الكافور، وعمّا حدث لها في ذلك اليوم البعيد، إلا أني أحجم عن ذلك في آخر لحظة. لا أعرف لماذا لم تتركني؟ ولماذا على الرغم من صمتها وتقدمها في السن تتفانى في خدمتي والاهتمام بي؟ يخطر لي أحياناً أنها فرحة بعجزي. صارت بعده أكثر هدوءاً واسترخاءً. تتحرك بهدوء وروية، وتمارس تفاصيل يومها غير مكترثة بوجودي. في حين أقضي الوقت في متابعتها، ومراقبة المساحة التي تجود بها عليّ فتحة النافذة من العالم بالخارج وأنا انتظر، بلا أمل، مجيء إنعام. كنت لا أبقى في مكان واحد لمدة يوم، حتى عندما يكسد الحال، ولا تكون هناك بضائع لنقلها، كنت أخرج بالسيارة فارغة، وأتجول في البلاد كأنني أهرب من شيء ما. الآن كُتِب عليّ أن أظل أسيراً لرقدتي هذه إلى ما لا نهاية.

المرأة الساكنة في البيت الحجري في حضن النيل، رفيقة الصمت والجنيّات الراقصات، تلك التي ينادونها زينات، وتعشق الأصوات المنغمة العذبة، وتكره الصراخ والضجيج، تلك المرأة أفاقت من خدرها، وعادت لعالمها وحياتها على وقع صفعة قوية ارتطمت بوجهها. فتحت عينيها لتجد زوجها، سائق عربة نقل البضائع، يغلي من الغضب.

بادرها بصفعات متتالية، وقبل أن تنتبه لعريها التام ورقدتها الغريبة بين أشجار الكافور، كان قد جرّها من شعرها خارج خميلة الكافور، وجمع ملابسها المتناثرة هنا وهناك، ورماها فوقها منتظراً أن ترتديها، وما أن لبست جلبابها على عجل حتى عاود من جديد جرها نحو البيت. ظل يصرخ متوعداً ومهدداً دون أن يستمع لتوسلاتها الباكية. لم يصدقها فيما بعد حين حكت له عن جنيّاتها بأطيافهن وأصواتهن المغوية. حبسها في حجرتها لأسابيع، ولاحظت أنه أصبح لا يخرج من البيت كثيراً كما في السابق، بل ويتعمد المكوث في الخلاء أمامه كل جمعة وقت الصلاة كأنما ينتظر الأطياف التي حدثته عنها.

يضع لها الأكل وهو متجهم، وحين يسألها عمّا كانت تفعله عارية في الخلاء، تنظر للجهة الأخرى دون أن ترد. لم يكن لديها أي تفسير مفهوم، هي حتى لا تتذكر أنها خلعت ملابسها، فقط تمددت في مركز الدائرة المكونة من الأطياف المقتربة منها، وأغمضت عينيها، منتظرة أن يعود العالم من حولها كما تألفه في بقية الأيام.

عندما انتظمت حياتها كما كانت، وعاود زوجها حياته خارج البيت. اعتادت انتظار جنيّاتها في الموعد نفسه من كل أسبوع، لكن دونما جدوى. لم يظهرن أبداً فيما بعد. صارت حتى تشك في أنهنّ ظهرن لها من قبل. لكنّها بعد سنوات طويلة، حين فقدت ابنها، ثم مرض زوجها ولزم الفراش باستمرار، صارت تشعر بصمت مشابه، في الوقت نفسه من كل أسبوع. صمت مطبق، لا يعقبه شيء. تحدق أمامها بين أشجار الكافور، محاولةً عبر الذاكرة خلق رفيقات الماضي وإعادتهن للوجود، إلا أنها لا تفلح. تراهنّ فقط بعينيّ خيالها، حينما تغمض عينيها منصتة للصمت المحيط بها.

تصدر هذه القصة بالإنجليزية قريباً عن دار «جرانتا بوكس» البريطانية ضمن أنطولوجيا القصة الإفريقية التي حررها الروائي النيجيري هيلون هابيلا.